

# بلاغة ما بعد حزيران ..

## بقلم محي الدين صبحي

سيظل جائئا على المصير العربي ما دامت للعرب دول متعددة ومصالح متضاربة . فليس تغيير علاقات الإنتاج كافيا لصنع دولة متقدمة ، وإنما يجب أن يصحب ذلك التغيير تغيير آخر في كمية الانتاج بحيث تشمل هذه الكمية جميع المنتجات العربية من مواد خام ونصف مصنعة ، بالإضافة الى التصنيع الكامل . لقد هزم العرب مرتين ، مرة في ظل الانظمة الرجعية ومرة في ظل الانظمة التقدمية لبقاء علة التجزئة وتأصلها في الوجود العربي ، بمرور الزمان وتضارب المصالح بين هذه الدول . فضلا عن تفاير الاستراتيجية بين دولة وأخرى من الدول العربية - التقدمية - لكي لا نقول عن الدول الرجعية اكثر مما هو معروف معاد . هذا الى ان الامل العربي معقود منذ عشرين عاما الى اليوم بالثورة والثوار ، - أو بمن كانوا يدعون ذلك وهم خارج الحكم .

ان مفزى الهزيمة لا يرتد فقط الى السياسة الداخلية للدول العربية بل يرتد أولا وبالذات الى العلاقات العربية السيئة بين هذه الدول التي عجزت عن أن تنسق خططها وتنفذها ضد العدو المشترك ، ضد العدو القومي الذي غدا قادرا على أن يجهز على اية دولة عربية اذا واجهته منفردة . ومع ذلك فان الجباية مع العدو - وبالرغم من خسارة حربين - ما زالت عمليا مجابهة انفرادية تضمن النتيجة لصالح العدو ، وتهدد اية دولة عربية بالسقوط . ذلك ان النزاع المسلح فسي فلسطين يضطلع داخل الحياة العربية ، بالدور الذي جملة ماركس من نصيب الحرب :

« ذلك هو الجانب المثير في الحرب : فهي تمنحن الامة . وكما ان المومبيات تنحل فور تعرضها للهواء ، كذلك تلفظ الحرب حكمها بالموت على جميع المؤسسات الاجتماعية التي لم تعد تمتلك قوة الحياة » ، والمؤسسات الاجتماعية التي لم تعد تمتلك قوة الحياة هي الدول الاقليمية التي انشئت على انقاض الوطن العربي ، ثم تركت طعمة للنفوذ الاجنبي وللغزو الصهيوني . ومع ذلك ، وخلال عشرين عاما ، فشلت القائمون على الكيانات العربية في تحقيق أي توازن أو تقدم نحو موقف قومي من حركة غازية تتهددهم جميعهم بالفناء كطليقة حاكمة لكيانات مهترئة . أما الشعب وقوميته وتطلعاته فله بعد سقوط الكيانات أن يبحث عن مصير آخر . .

ان الامة العربية بعد حزيران قد انطوت على نفسها تستبطن ذاتها . وهي بعد يوم حزيران ارهاص مجهض يترنح على عتبات العصر . ان امة جريحة تكلي ، كالامة العربية ، تنطوي على نفسها من هول الفجعة ، لهي امة تحتاج الى صوت شاعر يوقظها من حالة الدهول ، ويوصل اليها انباء استبطناتها وتوائج تأملاتها ، كما يعيدها الى جادة التطلعات والطموح ، ويقرس فيها من نبوته الرؤيا بالقاومة والنصر . فهي تحتاج معبرا عن سخطها ، مثلما تحتاج ملهما لحقدتها . وهي تحتاج اليه ناقدا لعيوبها ، مثل ما تحتاج اليه هاديا الى فضائلها . فهي تتعرف من خلاله على ذاتها ، مثلما تستعيد من خلاله ذاتها .

ذلك أن الشاعر هو المعبر عن اللاشعور الجمعي ، مثلما أنه يعبر عن الوعي والمطلبات الجماعية . انه وحده يتكلم باسم الامة حين يعجز الآخرون غيره عن التعبير عن تطلعاتها ومطامحها . أو يلتوي عليهم القول لمرض في نفوسهم .

وقصيدة الشاعر عبد الوهاب البياتي « بكائية الى شمس حزيران » التي ألهاها في تأبين المرحوم زكي الإرسوزي في دمشق في مطلع شباط من العام الحالي ، تمثل صورة فضلى من صور الشعر القومي

اذا كانت المسرحية وسيلة للتطهير الفردي ، فان الشعر وسيلة للتطهير الجماعي . ذلك أن دور الشاعر في امته يتعاطم كلما اختلطت القيم ، وتبلبت الالسن ، واعدت الدروب ، ووجد كل شيء تريبا لوجوده . ففي حالة الفوضى والتشويش يزداد دور الشاعر اهمية وايجابية بخط بياني متصاعد الى الذروة التي تستقطب وعي الامة ، فتركز طاقاتها حول بؤرة واحدة حتى يتم الانقلاب الكبير ، حين تتراكم التغيرات الكيفية تراكما يبلغ من الشدة والكثرة أن يتحول التغيير الكيفي الى تغير نوعي . فيطو عندهد العمل على القول ، وتسبق الخطوة الوعد ، ويفدو كل ما تنجزه الامة أو ترفضه ، تجسيدا لقيمة من قيمها الذاتية ، وتعبيرا عن شخصيتها القومية .

ان الشعر حارس لقيم الامة . ومحددا لشخصيتها ، وهو اداة عميقة الاتصال بوعي الجماعة التاريخي ، وارهاسها الاخلاقي ، بحيث تندر أشد النسدة فترات المصير التي لا تجد شاعرا يصور الشرط الانساني الذي تعيش الامة ضمن ظروفه تصويرا يضخم الجوانب السلبية ويشجها ، ويبلور الموقف الذي تتطلع اليه الجماعة ، اما عن طريق الدعوة المباشرة الى قيم وأخلاق جديدة ، أو عن طريق الإيحاء بذلك . انما يختلف الشاعر العبقري عن الشاعر المصلي في أن الاول ذو وعي يحيط بالاحداث ويستشرك المستقبل ، وأن الآخر متأثر بالوقائع خاضع لضغطها بحيث يكاد لا يميز العلة من العلول فضلا عن الرؤيا والتوقع وعلى هذا نرى في الشعر الطليعي عاطفة بلورها الوعي ووعيا مركزا فسي صور ، وصورا تتضمن خلفية خلقية تطل على الفاجعة الانسانية التي ألمت بحياة الامة .

ولقد كان الخليفة عمر بن الخطاب يشير الى دور الشاعر في حماية قيم الامة حين قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن عندهم علم أصلح منه . حتى أغناهم الله بالاسلام . » ذلك أن الشاعر الجاهلي في اشادته بقيم النجدة والكرم والبأس ، انما كان يتغنى بنموذج انساني هو في التصور أكثر منه في الواقع ، لكنه انما خط دربا في عالم القيم لشخصية الانسان العربي الضارب في حمية الجاهلية ، فلما جاء الاسلام أزال التناقضات المحلية بازالة الخلافات القبلية والورائية فاتجه جهسد العرب الموحد نحو تحرير المناطق التي كان ينتشر فيها العرق السامي في شمال افريقيا والشرق الاوسط ، وكان قوام العربي في بناء شخصيته رسالة الاسلام وقيم النخوة والجود والتسامح .

ان الوجود العربي اليوم أكثر جاهلية مما كان قبل الاسلام ، وأكثر تعرضا للفناء بما بين السيف والصاروخ من فروق تكتيكية . لذلك فان مهمة الشاعر كزارع للقيم وبعث وحارس لها . أعظم من مهمته في أيام الجاهلية بما لا يقاس من المرات ، وخاصة اذا وضعنا في حسابنا أننا لا نعيش في عصر النبوات ، وانما في عصر القوميات والتصنيع والتوزيع العادل للدخل الذي يجب أن يرتفع باستمرار .

فاذا أضفنا أننا نتعرض لغزو استيطاني كذلك الذي مارسه في وطننا روما قيصر وروما البانيا . وأنه لن نبقذنا من الفناء غير نجاحنا في تكوين قوة عربية ذاتية - أدركنا مدى حاجتنا الى القيم والى شاعر يبلور قيم العصر الحديث ورؤيا دولة العرب القومية الموحدة . ولقد غدا كل عربي يعلم حق العلم أن نكبات العرب لن تنتهي الا اذا تجاوزوا تناقضاتهم الداخلية ، وقصوا على دولهم المجزأة بأيديهم في سبيل انشاء دولتهم القومية ، قبل أن يقضي المهاجرون الاغراب على هذه الدولات التي لا تحمل من العولة غير اسمها . ذلك أن الهزيمة قدر

المرتبط بمرحلة حزيران ، والمعبر عن واقع فاسد لم تكن مرحلة حزيران سوى أبرز نتائجها المرئية المعلنه .

\*\*\*

تنطلق القصيدة من خلفية تتضمن وعي الشاعر بمهمته في التعبير عن الشعور الجمعي ، ومن وعي سياسي بتفاصيل الواقع العربي التي أشرنا اليه في المقدمة والتي نتج عنها :

الجهوع غير المنظمة ، التفرة العربية ، الكذب السياسي ، الادعاء العسكري ، ضعة الشرد والام المشردين ..

صوت المتحدث في القصيدة ينطلق من الجماهير . والمتحدث واحد من المشردين ، يعرض بوغي غامض ، بعض تفاصيل الواقع العربي الفاسد ، ويتنمر بصوت مختلف العلو . ثم ينهي كلامه بدمدمة غامضة ، هي بين التحدي والائين .

لعل احدى قدرات هذه القصيدة المؤثرة تنبع من لهجتها المباشرة ، ومن انطلاقتها بالحديث بضمير الجمع المتكلم . مما يجعل الشاعر لسانا للامة وفردا يعاني ما وقع على أفرادها من ذل وضميم وأذى .

كما ان جانباً كبيراً من طاقتها الموحية يكمن في أنها تتجنب الحديث عن العدو ، وتحتصر الحوار بين ضميرين يمثلان الامسة : « نحن » المتضررون ، و « هم » التسبيون . ان في هذا التركيز - مقصوداً أو غير مقصود - كسفاً عن يقين في قلب كل عربي ، مفاده ان قوة العدو الفعلية خرافة امام قوتنا الممكنة . وأن المعركة ، بل كل معركة ، لا يقرر نتيجتها سوى الوضع الداخلي للامة العربية . ليس للعرب ما يعاتبون العالم عليه من عدد وثروة ، فعتبهم مقصور على خلافهم ، وقصورهم مردود الى تفرقهم .

هذه المنطلقات الثلاثة مع الخلفية السياسية القومية ، خلقت دهليزا سريا يصل بين الشاعر من جهة وبين ضمائر مستمعيه وقرائه من العرب . فاللهجة المباشرة مقرونة بالشعر السياسي منذ أيام الجاهلية . وصيغة الجمع المتكلم استتاف من الشاعر الى الجماهير التي تواجهه ، لينوجه الجميع ضد صناع النكبة الغائبين ، أما نحن الحضور ، نحن الشعب المشرد المهده ، فلنا ثار عند المنتصر والمهزوم على السواء .

\*\*\*

طحنتنا في مفاهي الشرق حرب الكلمات

والسيوف الخشبية

والاكاذيب وفرسان الهواء

نحن لم نقتل بعيراً أو قطاة

لم نجرب لعبة الموت ولم نلعب مع الفرسان

أو نرهن الى الموت جواد

نحن لم نجعل من الجرح دواة

ومن الجرح دما فوق حصاة

شغلنا الترهات

فقتلنا بعضنا بعضاً وما نحن فئات

في مفاهي الشرق نصطاد الذباب

ترتدي اقنعة الاحياء في مزبلة التاريخ ،

أشباه رجال .

لم نعلق جرساً في ذيل هر أو حمار

أو نقل للاعور البجال :

لم لذت بأذيال الفرار ؟

ها هو المتحدث بيت الشكوى المريرة من « حرب الكلمات » ، حرب المناظرات بين الاحزاب وبين الحكومات العربية . الحرب البيزنطية التي تهدد فيها كل فئة ما عداها من الفئات ، وتزعم انها قادرة على البطش بأعدائها في الداخل والخارج على السواء ، في حين أنها تقسم التنازلات لكل من يتهدد سلطتها بالبطش تهديداً حقيقياً . طحنتنا في المفاهي المناظرات التي تعقد وتشهر فيها السيوف التي لا تقطع ، ويجري فيها التفني بمنجزات كاذبة، ويبرز فيها الى الحلبة فرسان جناء

يفاتلون حيث لا مقتل ولا مقاتل . ان الفجوة بين القول والعمل متاهة تتحطم في معارجها قدرات الامة على الثورة والبناء معا .

ان هذا التقرير لا كبر أمراض الامة في زعاماتها وقواعدها على السواء . يمر دون حاجة الى برهان ، لانه يستأنف الى ضمائر المستمعين والقراء وذكرياتهم القريبة وذكرياتهم البعيدة . فما من امة تكاثر عليها الاعداء وسلبوها وجودها ذاته ثم اكتفت بسيل اللفظ الجسارح والتحذيرات المخدرة للشعب ، كالامة العربية . كان الالفاظ سحر يرمي به الساحر أعداءه فيشلهم ، وهو انما يشل أهله وشيعته عن المبادهة والرد الصحيح بسيل من التطمينات الكاذبة والادعاءات المزيفة .

بعد أن انصرفنا عن النضال بمناقشة نظريات النضال ، وعن الانجاز بالتفني بفوائد الاجاز ، يمضي الشاعر الى تقرير حقيقة أبعد خطراً في حياة الامم ومصائرنا . فالشعب العربي اذ غدا دون ممارسة فعلية للكفاح ، فقد عقيدة الموت . فنحن - القطعان السائبة مسن المشردين ومن السكان المهديين بالتشريد - لم نجرب لعبة الموت ، ولم نعد نمتاز أو نملك روح الفروسية التي تفرق الحياة الكريمة بالموت الكريم :

« عشر عزيزاً أو مت وأنت كريم  
بين طعن القنا وخفق البنود »  
بل فقدنا حتى اقدم الصياد على فريسته « نحن لم نقتل بعيراً أو قطاة » بله معاركة الفرسان وملاعبة الجياد في ساحات الشرف . ذلك ان عقيدة الموت لا تولد في ضمائر الافراد الا خلال الكفاح اليومي لممارسة حرية المصير وحرية الضمير . وقل - بل من المحال - ان تبتثق عقيدة الموت في امة تعيش على السفسطة النظرية والنتيج الكاذب وبطولة الانجازات الممعاة . ان الشجاعة لا تصدر عن القوة الحيوانية بل عن وضوح قضية الامة في اذهان ابنائها وضمائرهم ، ثم عن تصميمهم على تحقيق العدالة التي يؤمنون انها من حقهم وواجبهم .

لكن الشاعر يذكرنا باننا لم نفكر - بالرغم من المحاورات العقائدية أو بسببها - حق التفكير بواقفنا ، ولم نضع يدنا على أمراضنا ولم نكشف علة تخلفنا : « نحن لم نجعل من الجرح دواة » أي أننا لم نكتب عن قضايانا ولم نحلل سبب آلامنا . اننا لم نحدق في نكبانا ، فضلاً عن كشف الطريق الى تلافيتها : « ومن الجرح دما فوق حصاة » وكذلك لم نبذل دمننا لتحقيق ما نؤمن أنه طريق لخلصنا .

ان امة تقنع بحرب الكلمات . وتعيش دون منجزات ، لهي امة فقدت عقيدة الموت . وانصرف مفكروها عن التأمل بكوارثها فانصرف ابناءؤها عن التضحية بنفوسهم في سبيل ايمانهم . وتلهى الجميع بالترهات من القول والعمل فدب الخلاف والشقاق في صفوف الامة فقتل ابناءؤها بعضهم بعضاً بدواع وأسباب متعددة ، سادرين في غيهم عن العدو الخارجي ، فلما أفاقوا من غمرتهم ، بعد أن تفرق بأسهم بينهم ، وجدوا أنفسهم فئاتاً مشردين في المقاهي ، عاطلين - كسائهم أبداً - عن كل قيمة تمنح الانسان - بفضل عمله وانجازاته - كرامته وثبت له ايمانه بنفسه أو بمجتمعه . لقد حرم مثل هذا الجيل حتى من حق تحديد المسؤول عن تشرده أو من شرف العمل لكسب قوت يومه ، فأقام على مزبلة التاريخ يصطاد الذباب ويتلقى الصدقات ، ويموت بالمجان دون أن تترك حياته أثراً أو يخشى قاتله ثاراً .

هذه النقائص تشمل الامة جميعها ، حكاما ومحكومين ، معارضة وحكومة ، شعباً ودولة وقيادات . والشاعر يسردها على لسان واحد من المشردين . فيحقق بذلك هدفاً مزدوجاً :

الهدف الاول أنه يحقق الاندماج بين الشاعر والشعب بحيث ينطلق صوت الشاعر من وسط هذه الجماهير التي ضيعها قادتتها وأضاعقت قضيتها في لفظ المقاهي وأرصفتها المنافي ، وبذلك يتجنب البعد الذي تخلقه الرفعة الخطابية في المدرسة الرومانسية - الوطنية التي يقف فيها الشاعر من الجماهير موقف الوجه المرشد الواعي أمام حشد من الذين ينتظرون كلمته ليقبلوا الارض عاليها سافلها . وهي المدرسة التي بدأت بعثرة بن شداد ثم المثني صاحب الاوامر الخلقية « عش عزيزاً » وانتهت بسليمان العيسى والشعر الفلسطيني بصد

النكبة ، حيث ختمها يوسف الخطيب بقصيدته الغاضبة العصماء :

اكاد أومن من شك ومن عجب  
هذي الملايين ليست أمة العرب  
فالشاعر في مثل هذا الموقف معصوم عن أخطاء قومه ، منزه عن  
معاييبهم . ينظر اليهم من على منبره وهو مندهش من صفائهم ،  
متنهر من أرجاسهم ، يهش عليهم بعضا مواعظه ويعدهم أن يلتقي بهم  
في اليوم الموعود ، على الارض الموعودة .

ولا كذلك البياتي في هذه المرثية . ان الشاعر والمتكلم والمستمع  
يشاركون في بث الشكوى ومذاكرة الأخطاء ومعاناة النتائج . وهو بهذا  
الاسلوب في المحاوراة يتجنب البلاغة المتعمقة في القصائد الخطابية  
لانه لم يعد بحاجة اليها ، ويتلام مع مناسبة الهزيمة التي لم تعد  
تحتل أي فخر أو تهديد أو وعيد بل تناسب « مقتضى الحال » . ان  
ما دامت البلاغة هي « تصريف القول بحسب مقتضى الحال » . ان  
القصيدة البلاغية كانت تصلح يوم كان العرب متحدون في دولة كبرى  
تستطيع أن توعد وتنجز وعيدها ضد من يتجرأ على سلامتها أو يهدد  
السلام العربي ، ما بين الصين واسبانيا . وقد نزلت تصلح الى صباح  
الخامس من حزيران بحسب ما تصوره البعض من ان بعث الامة العربية  
يمكن ان يتم بترداد خطابات مدوية وتكرار قيم الشجاعة الفردية البدوية  
بدلا عن توجيه الجماهير الى بناء الدولة - الامة بشجاعة التضحية  
الجماعية .

ان بلاغة ما بعد الخامس من حزيران تتطلب الكثير من التواضع  
والفداحة الاكثر من الوعي ، فضلا عن الشعور العميق بالمسؤولية والمشاركة  
فيها ، بغية توصيل رؤية قومية واضحة لكل الجماهير التي ثقفا التعليم  
والتجارب الفاشلة حتى لم تعد تنساق - او هكذا نأمل - في شطحات  
العاطفة التي تثيرها المهارات أو البلاغات أو البيانات أو النوايا الطيبة  
والاحلام اللذيذة . ان هذه البلاغة المشودة ، بلاغة تحليلية ، تنبثق من  
الواقع ولا تتعد عنه ، دون ان يفصلها عن الجماهير حاجز من البلاغة  
الاسلوبية ولا من الافكار الضبابية .

واسلوب البياتي في هذه القصيدة يجسد هذه الصفات فيحقق  
المشاركة بين القائل والمستمع من جهة ، ومن جهة أخرى يحقق الهدف  
الثاني ، في انه يحدد مسؤولية الجماهير في الأخطاء التي ارتكبت قبل  
الخامس من حزيران .

فهو ، وان كان ملتزما للجماعة ناطقا باسمها ، لم يتملق نرجسيتها  
فيجدها تجميدا زائفا ، ولم يتعد بها عن مسؤولياتها الحقيقية .  
فالاطع التي وقعت قبل حزيران انما وقعت على مرأى ومسمع من  
الجماهير التي لم تحرك ساكنا لتقوم الاعوجاج بسببها ، بل كانت  
في كثير من الاحيان الاداة الطيبة لتنفيذ ما يريهم « هم » الذين ساقونا  
الى النكبة . ف « نحن » اذن شركاء في الجريمة ، ويجب ان نحسد  
دورنا في النكبة التي حلت بنا .

نحن جيل الموت بالجان ، جيل الصدقات  
هزمتنا في مفاهي الشرق حرب الكلمات  
والطواويس التي تختال في ساحات موت الكبرياء  
ومقالات الذبول الادعياء

آه ، لطف هذه الصفحة ، هذا الخبر الكاذب  
يا سارق قوت الفقراء  
حذاء الامراء

بدم الصدق ، ومث مثل فقاعات الهواء  
لم نعد نقوى على لفق الاكاذيب وتحبير الهراء  
واجترار الترهات .

بعد ان حدد الشاعر - بنوع من النقص الذاتي ، ان صحت  
التسمية - دور الشعب في الهزيمة وذكر الملل التي تستنزف قواه ،  
انتقل الى تحديد المسؤولين المباشرين عن الهزيمة . وهم مشعلو حرب  
الكلمات ، والطواويس المنكرة ، والادعياء من الكتاب والصحفيين  
المرتزقة . لكنه لم يكدهم بسميهم حتى تمزق حقد المكتوم عن كابوس أو  
رؤيا بالعقاب المحتوم الذي لا بد وان تنزله بهم الجماهير التي اتخمتها

العرف .

فالشعب الذي أسىء اعداده للاقااة عدوه ، يعيش على الصدقات  
ويموت بالجان : يموت بيد العدو موت الابدانة والنكال ، دون أن يخشى  
ذلك العدو ردعا أو انتقاما . ويموت بالجان من عوادي الطبيعة بالبرد  
والمرض ، مثلما قد يموت من الجوع حين لا تكفيه صدقات الدول  
الصديقة والشقيقة .

مثل هذه الجماهير الغافلة ، زج بها في متاهات حروب الكلمات  
والخلافات السياسية والنزعات الاقليمية . دون أن تظفر منها بطائل  
أو تجد لها مخرجا - لان من زجوا بها في هذه المتاهات لا يريدون أن  
يصلوا الى نتيجة سوى هدر المراحل واضاعة الفرص لاي تقدم يمكن  
أن تحققة الجماهير خلال نضالها ضد التجزئة والتناقضات العريضة  
الوجودية أو المتقطعة .

اشترك في زج الجماهير في هذه الضلالة الجهلاء ، فثمتان :  
« الطواويس التي تختال في ساحات موت الكبرياء » وهم المتجبرون  
الذين يطشون بأبناء الشعب ثم يحنون هاماتهم للفرقة في ساحات  
القتال . وفئة الكتاب المناجورين والصحافيين المنتفعين ، وجميع ادعياء  
الفكر ومنتحلي الثورة ممن يزيفون الحقائق ويروجون للباطيل . غير  
أن رؤيا الشاعر أو كابوسه ، يجعلانه يطلق صيحة الانتقام ، بأن كل  
متملق منافق سيطخ بدم الصدق الاخبار الكاذبة والصفحات الملققة التي  
حبرها .

هنا لا بد من الاشارة الى التحديد الطبقي الذي يطلقه الشاعر  
على المسؤولين عن هزيمتنا : « سارق قوت الفقراء وحذاء الامراء » .  
هؤلاء هم أبناء البورجوازية الصغيرة الذين يسرقون الفقراء جدهم  
ويسلبون الاقطاع ارثه . وهم الذين يمتازون بضيق الافق والشراسة  
على حساب الطبقتين الاخرين - وعلى حساب الوطن أيضا . ان  
البورجوازية الصغيرة ستلاقي جزاءها على أيدي الجموع التي ايقظتها  
هزيمة حزيران حتى لم تعد تستسيغ الشعارات أو الاساليب التي كانت  
متبعة .

في هذا المقطع من القصيدة نجد التقابل واضحا بينه وبين المقطع  
الاول ، بحيث يملا المقطع الثاني الفجوات التحليلية في الاول .  
فالجماهير المستلبة انما سلبتها البورجوازية الصغيرة المدعيية .  
وافترقا عقيدة الموت وانعدام تجربة الفروسية انما يرجع سببه الى  
الطواويس الذاهبة بنفسها ، الهيام عن ذلها . وأما حرب الكلمات  
فانما يشعلها « الذبول الادعياء » من تجار الكلمة وبلغ التوازن تامه  
بالتعادل بين الاستلاب الذي تعيش فيه الجماهير نتيجة الوضع الزائف  
الذي فرضه عليها الطواويس ومخترفو المهارات العقائدية ، وبين  
الحقد المستعر في صدور المظلومين الذين سيأتي يوم ينشدون فيه  
اغلالهم ويشورون على استئلالهم فينتقمون من مستبليهم والمتاجرين  
بقصصتهم والمنتفعين بالامهم

وهكذا يستمر الاسلوب التحليلي في اداء رسالته البلاغية  
والتاريخية نحو الادب والجماهير ، بتحديد الادوار واستشراف الافاق ،  
مع نبذ كل تقاليد الشعر الخطابي السابق . فكان هذه القصيدة  
اعلان عن انتهاء دور « شاعر القبيلة » وبيان عن بدء دور « شاعر  
الامة » . فشاعر القبيلة يتوجه الى القرائن الجماعية لدى جمهوره  
فيهيجها ، أما شاعر الامة فيتوجه الى ضمير امته وعقلها ، يستأنف  
اليهما بالتحليل ومحاكمة الوقائع والجدل - دون حتميات ولا شطحات .  
لقد تطورت حياة المجتمع العربي خلال القرن الاخير تطورا نضج معه  
الوجدان الجماعي المدني بحيث التحت الحاجة الى فكر تحليلي واضح ،  
ينطلق من معطيات الواقع القومي الى تطلعات الامة واحتياجات المرحلة  
ومقتضيات العصر ، اذ يجب ان ننسى أننا على ابواب القرن الواحد  
والعشرين وان القبلة الذرية للعنوا لن تبعد اكثر من دقائق معدودات  
عن أية عاصمة عربية . ان هذه الحقائق جميعها تزحم الاطار الادبي  
والفكري بالاف المطالب التي لا تترك مكانا لشعر قبلي أو تفكير اقليمي  
- التهمة على الصفحة ٧٠ -

## بلاغة ما بعد هـ حزيران

– تنمة المشور على الصفحة ١١ –

\*\*\*

أو جهود مذهبي أو مصلحة ضيقة لجماعة من الجماعات لان هذا كله قد أدى وسيظل يؤدي الى مزيد من الهزائم والى المزيد من النذل والشقاء للجماهير العربية التي تقسمتها الدول المصطنعة . هذه الجماهير التي غدت تجتر حقدتها ونغمتها مع الالم والهوان بحيث يتراوح الصوتان في غمار المحنة بين تهديد بالانتقام لا يلبث ان يتلاشى تحت اصداء الانين والالم ، لكن الشعور الفطري يعود ليؤكد من جديد « نحن لم نهزم » :

نحن جيل الموت بالمجان ، جيل الصدقات

لم نمت يوما ، ولم نولد ، ولم نعرف عذاب الشهداء

فلماذا تركونا في العراء

يا الهي ، للطيور الجارحات

ترتدي اسمال موتانا ، ونبكي في حياء

آه ، لم تترك على عورتنا ، شمس حزيران رداء .

ولماذا تركونا للكلاب ؟

جيفا دون صلاة

حاملين الوطن المصلوب في كف ، وفي الاخرى التراب

آه ، لا تطرد عن الجرح الذباب

فجراحي فم أيوب ، والامي الانتظار

ودم يطلب نار .

يا اله الكادحين الفقراء

نحن لم نهزم ، ولكن الطواويس الكبار

هزموا هم وحدهم ، من قبل أن ينفخ ديار بنا .

ان هذا التوكيد بان الجماهير لم تهزم ، لا يستند الى حتمية ايدولوجية ولا الى رؤيا خطابية ، وانما يعتمد على الواقع التاريخي وعلى التحليل المنطقي وعلى الادراك السليم لمجريات الامور . فشعر الرسالة يعتمد قبل كل شيء على الحس السليم ، لانه يعتمد على وضع المسألة ضمن حدود الادراك الفطري والتأثير في وجداننا . . . وليس أقوى تأثيرا في وجداننا القومي من صورة عرب المناطق التي هاجمتها اسرائيل ، وهم يموتون موتا غير مجيد أو يتابعون حياة غير كريمة ، مشردون حفاة في العراء ، يعيشون بين اليأس والبكاء . أما الاموات فقد تركت جثثهم للكلاب ، لان زملاءهم في عجلتهم لم يكرموا موتاهم بالدفن ولا شهادتهم بالصلاة . سوى أن كل قتيل رمز لعداء أمة لم يطل دمه . اذ انه استشهد دفاعا عن شعب مستلب ووطن مستترق . فهو يفرض احترامه على وجداننا بقدر ما يفرض واقعنا على وجداننا النعمة والحقد – لكن لهذا الامر حديثا آخر ، دعونا نتجنبه . فما هذه الجراح الا صبرنا الطويل الذي كاد أن ينتهي ، وما الامنا سوى بداية النهاية . ان لنا ودما انتظار للثأر والخلص . فعد كل شيء ، لسنا نحن من خاض المعركة وانهزم ، بل ان من خاضوها وهزموا فيها طفمة من الطواويس ذات الظهر الخلاب والقلب الفارغ ، وحين ننتهي منهم تسلم مصيرنا بأيدينا ، فملك انفسنا وملك وطننا وملك النصر بامة موحدة متقدمة . لا تضلها حرب الكلمات ولا مقالات الذبول الادعاء .

على أن جو الصور هنا جو انساني يستدر العطف على الانسان المستلب المشرد بعد ان حلت به النكبة وقصمت ظهره الهزيمة . لذلك تخلو الصور من الهوام والدواب التي كانت تزدهم في مطلع القصيدة . وهي ان وردت فلزيادة في معنى الاستلاب من انسان اقتلع من ارضه عسفا وطوح به في مجاهل القرية والمستقبل المظلم . ففي العراء حيث المرض والجيف ، نجد الجوارح والكلاب ، للتأكيد على المنفى الاجسرد وسياسة دفع العرب نحو الصحراء ليرتع المهاجرون الغزاة في بحبوحة الهلال الخصيب . أما صيحة الشاعر : « آه ، لا تطرد عن الجرح الذباب » فهي اجمل استعارة في بابها على اعتبار ان السياق سياق بث وشكوى من جهالة الطبقة الفوقية في الوجود العربي ، خاصة وان هذه الشكوى تأتي على لسان رجل من الشعب يتمتع في العادة عن الخوض في موضوعات السياسة « العليا » حتي ولو أدت اساءة القائمين عليها الي

تشرده وبؤسه . فاذا انكشف الجرح الذي يفضيه الذباب ( الأرهاب ، اليأس ، تصنع اللامبالاة ) ظهر تحت الذباب حقد ونقمة لا تغير وجه المنطقة ، بل قد تغير وجه الارض ايضا . وقد أشارت نهاية المقطع الى ذلك اشارة خفية عن طريق عرض تلك القناعة العمياء المطلقة « نحن لم نهزم » !

ومع ذلك فان المرئية التي ألقيت في دمشق خير ما قيل عن استلاب الانسان العربي تحت أنظمة حكم تبتزه وتبش به وتضلل ثم تسلمه الى كوارث الهزيمة وبؤس التشرذ وعوادي الطبيعة ، دون أن تجد هذه الأنظمة عقابا من الجماهير السائبة ولا رادعا من وعيها . فهذه الجماهير التي تعلن « لم نمت يوما ، ولم نولد ، ولم نعرف عذاب الشهداء » قد حرمت حق الموت وحق الحياة على السواء ، ——— استمرت تشيئا وتثقيدا حتى غدت منفية وهي في الوطن ، مينة وهي في الحياة ، مستسلمة وهي في ساحات المصير . على ان وصف الاستلاب في المطلع اكثر مباشرة وتأثيرا منه في النهاية ، لان النهاية تقر « نحن لم نهزم » اما المطلع فيؤكد على عزلة هذه الجماهير وان لا دخل لها في المعركة . فمنذ ان يبدأ الشاعر قصصه بهذا المطلع الاخباري التقريري المباشر – والمحزن ايضا :

طحنتنا في مقاهي الشرق حرب الكلمات

ينتقل الى شرح ما في هذه الحرب المزيفة من تفصيلات مؤسية . فيستعير من التراث الانساني صورة « فرسان الهواء » التي رسمها سرفانتس لدون كيشوت . كما يستفيد من لافونتين قصته التي تحتال فيها الفران لانفسها من بطش الهر فتعلق بذيله جرسا تفر كلما سمعته لانه يؤذن بقدوم الهر الى المطبخ .

كذلك يعيد الى الازهان من البيئة العربية صور البعران والقطا والفرسان والحياد ، ويستعمل الاصطلاح الكلاسيكي « لاذ باذيــــال الفرار » والصفة القديمة التي وردت على لسان علي بن ابي طالب « اشباه الرجال » . كل هذه الصور استعملت لتصل بين القاريء والبيئة بتراثها ومعتقدات شعبيها وطرق التعبير والتفكير لديها .

فاذا تم له ذلك وانتقل الى تصوير الاستلاب الذي فرضته على الجماهير أنظمة لا تهتم بمصلحة الجماهير أو بتطلعاتها أوفى على الغاية بنقل السخرية المرة التي تنفذ كالشفرات الحادة ضد التواكل والتخاذل الذي سيطر على الجماهير طيلة المراحل الماضية فنتج انسان لا يجرؤ على ذبح بعير أو اصطياد طائر ، ويتعد حذرا خائفا عن لعبة الموت فيلجأ الى المقاهي يملأ بظالته بصيد الذباب . . « ضعف الطالب والمطلوب » . ان امثال هؤلاء الناس ليسوا احياء بل يرتمون « أقتنعة الاحياء » وليس لهم في التاريخ مكان بل هم « في مزيلة التاريخ » حيث يقبع « اشباه الرجال » الذين سفلت مرتبتهم عن مرتبة الفران . . فبعد كل شيء احتالت الفران على عدوها وعجزنا نحن عن ذلك .

على أن الذين أشعلوا نار الفتنة بين صفوفنا وشتتوا جمعنا وقسموا امتنا حتى أتاحوا للعدو أن ينثرنا فتاتا مهانا هم أحقر الناس وأبلدهم . انهم « الطواويس » بكل ما في الطواوس من تيه أحق وغفلة واعتزاز . وهم أصحاب « السيوف الخشبية » التي تروعنا ولا تروع العدو . . . انهم خريجو « مقاهي النضال » ومشعلو « حرب الكلمات » بمقالاتهم السخيفة واخبارهم الكاذبة التي يحرونها ليبردوا سرفتهم وسرقة أسيادهم الطواويس لقوت الشعب . وليس لهم عقاب الا ان يلطخوا بدمهم صفحات منشوراتهم الفارغة . ان موتهم لن يحدث أثرا الا كما تحدث الفقاعة على سطح الماء حين تفقا ، بل هم أهون من ذلك وأذل . الا ان الشاعر لا يسترسل في تصوير الحقد الدفين وأحلام الانتقام بل يعود بقسوة الى المشهد الحيواني الذي يسيطر على جو الجماهير المستلبة ، هذه الجماهير التي كانت « تلعق » الاكاذيب و « تجتر » الترهات شأنها شان بقية الحيوانات .

الابيات الوحيدة التي تنجو من الجو الحيواني هي الابيات التي تصور الشهداء « حاملين الوطن المصلوب في كف وفي الاخرى التراب » ثم يليها ذلك التجسيد الرائع « فجراحي فم أيوب والامي انتظار ، ودم يطلب نار » بكل ما فيه من معاناة وتريص ونخوة انسان مجروح . ولكن من سيطرد « عن الجرح الذباب » ؟ لا أحد .

ان الشاعر في غمرة يأسه من هذا الوضع الخائق ، يمضي في سخريته القاتلة حتى النهاية . فيعد كل شيء ، ان القصيدة التي القيت في دمشق قصيدة رثاء للمرحوم زكي الارسوذي . فلا يتسرك شاعرنا هذه المناسبة تفوته : اذ يخاطب الميت ، يطلب اليه ان يقوم ويحدثنا بقصيتنا ، لعل كلام الميت يفجر آلام الانتظار ، ويفقر جراح الهزيمة فتغلي الدماء وتطلب نارها من اثارها :

آه ، يا قبر حكيم نام بين الفقراء

صامتاً ، يلبس أكفان الحداد

صامتاً يشعل نار .

قم تحدث :

نحن موتى

نحن جيل الموت بالمجان ، جيل الصدقات

وهكذا يلبس الميت أكفان الحداد - حدادا علينا نحن الذين نموت دون نار ونعيش دون عمل ولا هدف . انه لعمرى ، رثاء للاحياء وهجاء للظروف البشمة التي انتجت نماذج جيلنا ، جيل حزيران .

ان هذه القصيدة التي سبكت بأسلوب الحديث الموجه ، صرخة تنبعث من القلب فتترك في الحياة أثرا واخزا كرائحة الكحول . ولا مندوحة عن ذلك أو غرابة فيه ، ما دامت تهدف الى تظهيرنا من الواقع المنحط المتخاذل ، عن طريق تشريحه وعرض أسوأ ما في أحشائه . ان هذه الصرخة تريد من كل عربي ان يعاف وضعه ويفادر ضماناته ليقرر مصيره حسب ارادته وتحديات المعركة .

ومع ذلك ، أو بسبب ذلك ، فهي تمتلك سحرا يعتمر الجمال من أقيح الأشياء والوقائع - ان بقي في مثل واقعنا جمال ولو لعين فنان ، غير ان جمالها ليس بهرجة ولا حماسة بل يكمن في عمق التحليل وبراعة التصوير ورشاقة الاداء ، وفي البرق المكهرب فسي انفجارات الحقد واليقين .

ان وراء كل تفعيلة في هذه القصيدة الممتازة انسانا حزينا على هزيمة أمته . غاضبا لهوانها ، حاقدا على العناصر الهدامة بين مفكريها وقادتها ، سريع التأثر وعميق الانفعال ضد ذلك الزيف والادعاء الباطل - الا ان انطباعاته تنعكس باستجابة قومية اخلاقية ، تجعله يستخدم كل مهارته - وهي كبيرة - في اكتشاف الصور الصحيحة والمعبرة عن الوعي الحديث الذي يشارك هو نفسه في ايقاظه وفي تكوينه تكوينا جديدا أكثر ايجابية وتنهال الخلفات الداخلية العربية الفتيلة ، والدعوى الفكرية أو الثورية الزيفة أو المختلفة .

كما ان الموقف القومي الذي انطلق منه الشاعر في قصيدته هذه ،

منحها انسانية شاملة دون ان يخرج بها - هذا الموقف القومي - عن روح العصر وشعارات المرحلة . ففي هذه المرحلة من حياة أمتنا المهانة المهذبة، يكون كل حب للانسانية أو للطبقة حبا على حساب الامة بمجموعها شأنه في ذلك شأن الحب الموجه الى الطائفة او الى الاقليم . فليس يخلفه من حولنا ادعاء الفكر والثورة . وليس ثمة ما هو أكثر انسانية وابعد تقدمة من الدعوة العربية الى وحدة عربية تحمي شعبنا من الهزيمة والتشرد والجوع والبطالة - والنضال العملي المشترك من أجل ذلك كله .

ان فضح الشرط الانساني للامة العربية بسلاح التحليل المنطقي وأداة التصوير الشعري ، هو المهمة الأكثر الحاحا والاشد تأكيدا من كسل المضامين المقترحة على الواقع والمحمولة عليه .

ولقد ساهم البياتي بقصيدته هذه في شق درب لما يجب ان تكون عليه البلاغة العربية في مرحلة ما بعد حزيران . وبذلك زاد من مكانته كشاعر في مقدمة شعراء الطليعة العربية منذ أكثر من عشرين عاما .

لقد ساهم الشعر الخطابي في ايقاظ الجماهير العربية على النكبة ، وساعدها في تحديد بعض مواطن الداء الذي أدى الى الهزيمة فحضر في ذلك بسهم وافر في موجة الثورة العربية الثانية التي نقضتها رواسب الماضي الاقليمية والطائفية والحزبية والطبقية - وهي رواسب نشأت جميعها عن ضيق الرؤية وعموضها .

فبدلا من ان تتوحد طاقات الثورة العربية في ( ثورة - طفرة ) ضد العدوان الداخلي والخارجي ، تبددت هذه الطاقات بانقسام ذي واصطدامات داخلية ذهبت بإمكانية تحول الثورة الى طفرة تشمل الواقع العربي وتغيره في النوع والكم .

ان الثورة المنقسمة يلقي بعضها بعضا . لكن الشعب لا بد ان يصنع ثورته . وان هذه القصيدة من بين القصائد القليلة التي تدعو وتسجل بدء مرحلة الثورة العربية الثالثة . وهي مرحلة قد تشمل بعض الحركات الثورية القائمة ، وقد تتجاوز بعضها الاخر - وذلك حسب قدرة هذه الحركات على تلبية مطالب الثورة في شمولها لنظلمات الامة .

ان الطريق الجديد للثورة العربية هو الطريق الجديد للشعر العربي، كي يساهم في توعية الجماهير وتجنيدها لخدمة القضية العربية . وانها لمساهمة لن تنتهي حتى يكون للامة علم أصح من علم الشعراء ، وعندما يطو الانجاز الكلمة وتسبق الخطوة الموعد .

محي الدين صبحي

دمشق

## شرح جنة الاستعمار

تأليف في دوبوشير  
ترجمة ادوار الخراط

صدر حديثا :

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوربية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويفقد فضلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوربا ، وصلة ذلك بالفزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاختفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية . ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي فسي آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب